تطوّر الدّرس النّحويّ في الأندلس

أ. محمّد بن محمد حرّاث

جامعة تيزي وزّو

المقدّمة: إنّ للعرب تاريخا كبيرا مع الأندلس، فقد عمّروا فيها ثمانية قرون واعتادوا أنْ يذكروها بنوعٍ من الحنين والإعجاب؛ لأنّها كانت في التّاريخ العربي ذات لونٍ خاصّ، ذهبيّ السّمات، ظهرت فيه العبقريّة العربية، وبلغت أوجّها في الإبداع في شتّى المجالات: من الفنون إلى الفكر إلى العمران... إنّ الأندلس "حلْمٌ حلمت به الأرض الإسبانيّة فترةً من الزّمن، ثمّ انقضى تاركًا في الأجواء بقايا من عطره السّحريّ وأريج الذّكريات"[1]. لقد كانت الأندلس آخر الفتوحات العربيّة في الغرب، وقد تميّز فتحها بأنّه كان أوّل دخول للعرب إلى القارّة الأوروبّية. إنّ الأندلس هو تجربة تاريخية حضاريّة إسلاميّة كاملة لها بداية ونهاية، والأندلس هو الوحيد من دول الإسلام الذي نملك له شهادة ميلاد وشهادة وفاة. لقد كانت في أهل الأندلس الأصليين عُجمة دفعتهم إلى الإقبال على تعلم العربية منذ أنْ دلف نور الإسلام إلى بقاعهم، وانتشرت العلوم الدّينيّة في أول الأمر؛ كالفقه والحديث والقراءات، ثمّ أخذت بعد ذلك العلوم العربية -اللغوية والأدبية- في الانتشار وتأخّر ظهورها بسبب قلّة المعلّمين. وانتشر فيهم -أول ما انتشر- كتاب الكسائي، إذْ أنّ أوّل من أدخله بلاد الأندلس هو جودي بن عثمان (ت198هـ) تلميذ الكسائي والفراء، ثمّ دخل كتاب سيبويه، والتفّ حوله وحول تدريسه وتعلُّمه ثلّة من المعلِّمين والمتعلِّمين. ويقال إنّ الأفُشينق محمّد بن موسى بن هاشم (ت307هـ) هو أوّل من أدخل كتاب سيبويه، وأقرأه طلاّبَه بقرطبة[2]. إذن فأهل الأندلس عرفوا -أولَ ما عرفوا- المذهبَ الكوفيّ قبل المذهب البصري، وهذا سيكون له أثره في فكر النحاة الأندلسيين فيما بعد. وعلى الرّغم من انتشار العلوم الدّينيّة قبل العلوم اللّسانيّة، إلا أنّه لم تدم هذه الحال طويلا، فسرعان ما ولجت العلوم اللّسانيّة هذه البلاد، وانتشرت أيّما انتشار، فقد دخل النّحو إلى الأندلس والمغرب مع تلاميذ الخليل وسيبويه ويونس بن حبيب، فعجّت فاس وقرطبة بعلماء في النّحو واللّغة وقد تلقَّوا قواعد اللّغة العربيّة بمذاهبها الثّلاثة: البصرية والكوفية والبغدادية. ولكنّهم في أغلب دروسهم اتّخذوا من كتاب سيبويه أساسًا، وقامت حوله العديد من الشّروح والحواشي وحتّى الرّدود.

1/- ظهور الحركة اللّغوية في الأندلس[3]: ونعني بها حركة اللّغة والنّحو والصّرف، وكلّها علوم رواية أكثر منها علوم دراية، ولا بدّ أنّ العرب الفاتحين من موسى بن نصير إلى عهد الخليفة النّاصر، كانوا ينقلون في البلاد ما عرفوه في

الشّام من لغة وأشعار ونحوهما، إذْ كان بعضهم، من غير شكٍّ، مثقّفين يتناقلون الأشعار، وأيّامَ العرب والأخبار في مجالس سمرهم. إنّما لم يكن ذلك علمًا منظّمًا حتّى جاء عبد الرّحمن النّاصر، فطمح أنْ يقوّي مملكته بما قوّى به العبّاسيّون دولتهم، وكان من أسباب قوّة العبّاسيين: العلم والشّعر والأدب وغير ذلك، فأراد أنْ يقلّدهم، ورأى أنْ ليس عنده معلّمون كبار، ينشرون الثّقافة العربيّة بين أهل الأندلس، فقرّر أنْ يندبَ لذلك بعض أهل المشرق، وبعد تفكير طويل، رأى أنّ أصلحهم أبو علي القالي؛ لأنّه كان قد نشأ في بغداد، وتعلّم على شيوخها، وجدّ في التّحصيل، فحصّل الحديث واللّغة والأدب والنّحو والصّرف من مشايخ مشهورين كالهرويّ في الحديث، وابن درستويه؛ أحد النّحاة المشهورين، والأدباء المعروفين والزّجّاج؛ أحد تلامذة المبرّد، والأخفش الصّغير؛ وهو أيضا تلميذ المبرّد، ونفطويه وابن السّراج، وابن الأنباري، وابن أبي الأزهر، وابن قتيبة وغيرهم. ووعى أكثر علمهم، وأقام في بغداد خمسًا وعشرين سنة، وعرف بين أهل الأندلس بسعة الاطّلاع في العلم والرّواية، وطول الباع في اللّغة وفنونها، إلى أنّ توفّي سنة 358هــ. وعاصره ابن عبد ربّه الذي ألّف كتابه (العقد الفريد) فنقل فيه إلى أهل الأندلس معارف المشارقة، وكان أصله من مالقة، وكان متعدّد المعارف؛ إذْ تعلّم النّحو والعروض والفقه والتّاريخ والأدب، وكان قد تعلّم في بلده بادئ الأمر، ثمّ رحل إلى مصر، وأخذ عن علمائها.

ومن هنا يمكننا القول: إنّ أبا علي القالي ليس أوّل من بذر البذرة الأولى، فقد بذرها العرب والبرابرة فاتحوا الأندلس، وإنّما أبو علي نمّاها، ونظّم تعليمها، وربّما كانت هناك كتب من المشرق تتسرّب إلى المغرب، فيأخذ منها الأندلسيون أدبهم. وكان ممّن تعلم على أبي علي القالي: أبو بكر الزّبيدي؛ وهو نحويّ مشهور، ألّف كتاب (مختصر العين) وألّف (أخبار النّحويين) ورتّب نحويي الأندلس على طبقات. ثمّ توافد مؤلّفون أندلسيون ألّفوا في اللّغة؛ منهم ابن سيّده الذي اشتُهر بالمخصّص ثمّ بالمحكم والمحيط الأعظم؛ وهو معجم كبير في اللّغة. واشتهر في اللّغة كذلك الأعلم الشّنتمري، وكانت له ميزة أخرى غير جمع اللّغة وهي حفظه لأشعار العرب، واشتهر من الأندلسيين كذلك أبو الحجاج يوسف ابن الشّيخ البَلويّ المالقي ألّف كتابا في جزأين كبيرين، وضعه لابنه وسمّاه (ألف باء) وهو موسوعة كبيرة تكلّم فيها في الحساب، والطّبيعة، والنّبات، والحيوان والإنسان، وعلم الاجتماع والشّريعة، والأديان، وفقه اللّغة، ومخارج الحروف والنّحو والصّرف والحكايات والأساطير؛ وقد رحل إلى المشرق، ووصف أشياء كثيرة وصفا دقيقا؛ مثلما فعل في وصفه لمنارة الإسكندريّة. عاش من سنة 526هــ إلى سنة 603هــ.

أمّا النّحو فقد بدأ في الأندلس كما بدأ في المشرق، عبارة عن قطعة مختارة فيها لفظٌ غريب يُشرح، ومشكلة نحويّة تُوضّح، على النّحو الذي نراه في أمالي أبي علي القالي، والكامل للمبرّد. ثمّ ألّفوا نحوًا في مسائل جزئيّة، ثمّ بعدما أن انتقل كتاب الكسائي وسيبويه إلى الأندلس، ألّفوا في النّحو من حيث هو كلٌّ يشمل جميع الأبواب، حيث اشتهر في أوّل الأمر تفسير الحوفي لكتاب الكسائي، ثمّ أعقبه أبو علي الشّلوبين؛ الذي كان إمامًا في النّحو، يجلّه تلاميذه، ويغالون في فضله. ونبغ بعده ابن خروف وابن عصفور، حتّى كانت لهما آراء في النّحو ينفردان بها، وجاء بعد ذلك ابن مالك؛ إذْ رحل إلى مصر ودمشق، وأخذ العلوم الشّرعيّة وتبحّر فيها واشتهر شهرةً عظيمة، واشتهرت ألفيته التي حفظها أكثر المتعلّمين في الشّرق والغرب، بالإضافة إلى مؤلّفاته الأخرى مثل: الكافية الشّافية والتّسهيل، ولاميّة الأفعال، والمفتاح في أبنية الأفعال، وغيرها كثير. وجاء بعده أبو حيّان الغرناطيّ الأندلسيّ؛ وهو لغويّ عربي عدّه الكثير من أكبر علماء النّحو في الأندلس، وهو بربريّ الأصل، تنقّل في البلاد بعد أنْ تعلّم على علماء الأندلس، وكان ظاهريّا على مذهب ابن حزم، وكان نحوياً ومفسّرا ومحدّثا وشاعرًا، وبلغت مصنّفاته في العلوم المختلفة أكثر من ستّين تأليفا، لم يصلنا إلا نحو عشرة كتب وكان لغويًّا يعرف لغاتٍ كثيرة، فقد ألّف كتابا في الفارسيّة، وآخر في اللّغة التّركية، وآخر في اللّغة الحبشيّة.

2/- تطوّر الدّرس النّحوي في الأندلس: من طَبْعِيَّة أي علم أن يمرّ بمراحل تدريجية خلال نشأته الأولى، فيتأرجح بين عوامل تساعده على الازدهار والنّموّ والسّير نحو الاكتمال والنّضج؛ وبين عوامل أخرى تسهم في انحطاطه وتراجعه. وعلم النّحو في الأندلس كان له حضور قويّ وانتشار كاسح، وصولةٌ وجولة، ولم يعرف علم من العلوم في الأندلس هذا التّطوّر الذي عرفه النّحو، وكان لهذا التّطوّر عوامل كثيرة تضافرت فحقّقت هذا التّطوّر نذكر منها:

أوّلاً: الرّحلات العلميّة: تنقسم رحلات علماء الأندلس إلى ثلاثة أقسام: رحلةٌ كبرى إلى بلاد المشرق العربي، من أجل لقاء العلماء المشارقة، وأخذ العلم عنهم. ورحلةٌ وسطى إلى بعض المناطق القريبة من الأندلس كالقيروان، من أجل تبادل المعارف والعلوم. ورحلةٌ صغرى محدودة في بلاد الأندلس. ولهذا لم يكتفِ العلماء برحلات الحجّ التي كانت فرصة للقاء العلماء في مواسم الحج، بل أصبحت الرّحلة من أجل العلم هدفًا بحدّ ذاته. فدأب الأندلسيّون على لقاء العلماء المشارقة وأخذ اللّغة عنهم والحضور إلى مجالسهم، ونقل كتبهم إلى الأندلس. فالنّحو دخل إلى الأندلس عن طريق رحلات العلماء الأندلسيين إلى المشرق.

ثانياً: الهجرة إلى الأندلس: مع نهاية القرن الهجري الرابع تضاءل عدد الرّحلات إلى المشرق؛ وذلك بسبب قدوم علماء مشارقة إلى الأندلس، ومنهم أبو على القالي، فاستغنى بعض الطّلبة عن الرّحلة، واكتفوا بالجلوس إلى هؤلاء العلماء المشارقة، إلا أنّ هذا العامل –أي رحلة المشارقة إلى الأندلس- لم يكن ذا أثر كبير مثلما كان لرحلات الأندلسيين إلى المشرق، فهؤلاء العلماء الذين رحلوا إلى الأندلس، لم يحدثوا تلك الفائدة العلمية التي كانت تقوم بها الرحلات إلى المشرق وذلك راجع لعدّة أسباب، أهمها:

- قلّة المهاجرين إلى الأندلس، إذْ أنّ عددهم كان قليلا جدًّا، إذا ما قيس بالذين كانوا يتركون الأندلس، ويتّجهون نحو المشرق طلبا للعلم.
- طبيعة هؤلاء العلماء المهاجرين، فلم يكونوا من العلماء الأعلام، أمثال ثعلب والمبرّد وابن الجنّي وغيرهم من العلماء الأفذاذ، بل كانوا علماء على درجة متواضعة نسبيا من العلم والاطّلاع.
- هدف تلك الرّحلات، فقد كان الهدف العام لتلك الرّحلات ليس من أجل طلب العلم؛ لأنّ المشارقة كانوا يعدّون أنفسهم أعلى مرتبة علمية من أهل الأندلس ولم يكن الهدف أيضا نشر العلم، بل كان في الأعم الغالب من أجل التّجارة والتّكسّب، لِمَا ذاع في ذلك العصر عن بلاد الأندلس وخيراتها[4].

وعلى الرّغم من هذه العوامل، فإنّ الهجرة إلى الأندلس ساعدت على إحياء حركة النّحو في الأندلس وتطوره.

ثالثاً: المنظرات النّحويّة: لقد أسهمت هذه المناظرات في تطوّر النّحو ونموّه، ووصوله إلى قمّة الدّقّة؛ لأنّ هذه المناظرات كانت تعتمد "الدّقّة والنّظر وسرعة البديهة، وطلاقة اللّسان والاحتجاج القوي، والتّعليل السّليم، والقياس المنطقي"[5]. فالمُناظِر يضطرّ إلى قراءة عدّة كتب، والتّبحّر في مسائل عديدة، حتى يلج ميدان المناظرة. وكانت هذه المناظرات تتمظهر في عدّة أشكال؛ إمّا بين الطّالب ومؤدِّبه أو بين نحويٍّ ونظيره. كلّ ذلك أثرى السّاحة العلميّة، وارتقى به النّحو في الأندلس، حتّى أصبح النّحويّ في الأندلس يردّ على الجماعة من النّحاة المشارقة الذين يُعَدُّون من أرباب الصّنعة.

رابعاً: دور الحكّام والملوك: كان بعض حكّام الأندلس على درجة عالية من العلم فشجّعوا العلم وأكرموا أهله؛ لأنّهم علماء يحبّون العلم، وحتّى الحكّام غير العلماء شجّعوا العلم وعملوا على نشره، وذلك في عدّة أشكال منها: إنشاء المكتبات التابعة للقصر، فلا يكاد يخلو قصر من قصورهم من مكتبةٍ عظيمة، تكون محجًّا للعديد من العلماء وطلاّب العلم. وكذلك تشجيعهم للعلماء والمؤلِّفين على التّأليف وإغداق العطايا عليهم، فكثير من مؤلّفات الأندلس نجدها باقتراح حاكم أو أمير

وكذلك إشرافهم ودعمهم لعمليّة تدقيق الكتب، وأكثروا من مجالستهم، بل كانوا يتنافسون في ذلك.

3/- المدرسة النّحوية الأندلسية: كانت البدايات الأولى بعد الفتح الإسلامي لانتشار العلم ومجالس العلماء محتشمة؛ وما فتئ بعد ذلك ينتشر المدّ العلمي والنحوي خاصة، وأوّل نحاة الأندلس بالمعنى الدّقيق لكلمة نحوي –كما يقول شوقي ضيف[6]- هو جوديّ بن عثمان المَوْروري؛ الذي رحل إلى المشرق، وتعلّم على الكسائي والفرّاء، وهو أول من أدخل إلى الأندلس كتب الكوفيين، وأوّل من صنّف في النّحو. وظلّ يدرّس إلى أن توفِّيَ سنة 198هـ. وعاصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله الذي رحل أيضا إلى المشرق، ولقي عثمان بن سعيد المصري؛ المعروف باسم وَرْش، وأخذ عنه قراءته وأدخلها الأندلس. وكان إلى جانب ذلك بصيرًا بعلوم العربيّة، وتكاثر بعد ذلك القرّاء والمؤدّبون بدايةً من القرن الهجري الثالث إلى ما يليه. والرّائي المتفحّص لمسيرة النّحو في الأندلس يرى أنّ الأندلسيين قد تأخّروا في العناية بالنّحو البصري، إذْ صبّوا جلّ اهتمامهم بادئ الأمر بالنّحو الكوفي ودامت الحال كذلك إلى أنْ جاء الأفشنيق محمّد بن موسى بن هاشم (ت307هـ) وأدخل إلى الأندلس كتاب سيبويه، فانكبّ عليه الأندلسيّون دراسةً وشرحًا وتحليلا وتفسيرًا. وجاء بعده أبو علي القالي البغدادي، الذي نزل الأندلس سنة330هـ وقاد فيها نهضةً لغويّةً ونحويّةً خصبة. وكان اعتماده فيها على ذخائر اللغة والشّعر والنّحو؛ التي حملها معه من المشرق. وكان ممّا حمله كتاب سيبويه؛ الذي أخذه عن ابن درستويه عن المبرّد، وكان يجنح إلى المذهب البصري، ويحتجّ له، وينافح عنه مناظرا مجادلا، وخلّف جيلا من المعلّمين والطّلبة.

وبعد شيوع المذهبَيْن النّحويين: البصري والكوفي في الأندلس، إذا هم ينتهجون نهج البغداديين في الاختيار من آراء نحاة البصرة والكوفة، ويضيفون إلى ذلك اختيارات من آراء البغداديين، وأبي علي الفارسي، وابنِ جني خاصة. ولا يكتفون بذاك، بل يسيرون في اتّجاههم -من كثرة التعليلات والنّفوذ إلى دقائق المسائل- إلى بعض الآراء الجديدة، وبذلك يتيحون لمنهج البغداديين ضروبا من الخصب والنّماء. ومن أشهر أعلام هذه المدرسة نجد الأعلم الشّنتمري (ت476هـ) الذي يعدّ أوّل من تغوّص في العلل والتعليلات، فلا يكتفي بقوله كلّ مبتدأ مرفوع، بل يذكر علّة كون المبتدأ مرفوعا لا منصوبا. وفي هذا يقول ابن مَضَاء القرطبي: "وكان الأعلم –رحمه الله- على بصره بالنّحو مولَعا بهذه العلل الثّواني، ويرى أنّه إذا استنبط منها شيئا فقد ظفر بطائل"[7]. وكان يعاصر الأعلمَ ثلاثةٌ من أعلام النّحو في الأندلس، عاشوا جميعا في عصر المرابطين؛ وهم: أبو محمّد بن السيد البطليوسي، وابن الباذش، وابن الطّراوة. فأمّا ابن السّيّد البطليوسي (ت521هـ)

فكان يقرئ الطّلّابَ في قرطبة ثمّ في بلنسيّة النّحوَ، وعني بكتاب الجمل للزّجّاجي. وأمّا ابن الباذش علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي (ت528هــ) فقد كان ذا معرفة واسعة بعلم العربيّة وصنّف شروحًا على كتب مختلفة للبصريين والبغداديين؛ مثل كتاب سيبويه، ومقتضب المبرّد وأصول ابن السرّاج، وجمل الزجاجي، وإيضاح الفارسي. وأمّا ابن الطّراوة فقد كان تلميذا للأعلم، وقد تجوّل في الأندلس معلّمًا يُقبِل عليه الطلاب من كلّ فجّ، وانفرد بآراء في النّحو حتى صار له مذهب وحده.

وتوالى النّحاة بعد ذلك؛ كابن الرّمّاك (ت541هــ) وهو تلميذ ابن الطّراوة والأقليشي (ت550هــ) وجابر الإشبيلي الحضرميّ (ت596هــ) تلميذ ابن الرّمّاك وتلميذه أبو بكر محمّد بن طلحة (ت618هــ) وكان يميل إلى آراء ابن الطّراوة ويحتجّ لها. وأنْبَهُ من هؤلاء أبو بكر بن الطّاهر (ت580هــ) وأبو القاسم السّهيلي (581هــ) والجزولي (ت608هــ) وابن خروف (ت609هــ) وعمر بن محمد الشّلوبين (ت645هــ) وابن هشام الخضراوي (ت646هــ) وجهود الأخيرين هؤلاء في النحو لا تخفى. وجاء بعدهم ابن مَضَاء القرطبي (ت592هــ) الذي ثار ثورته المشهورة على بعض ما كان سائدا عند النّحاة؛ من نظرية العامل، إلى القياس العقلي الجدلي، إلى العلل الثواني والثّوالث، وكذا التّمارين غير العملية في التّصريف. وجاء بعده ابن عصفور (663هــ) الذي حمل لواء العربيّة في زمانه بالأندلس، وله في النّحو والتّصريف مصنّفات مختلفة. وكذلك ابن مالك جمال الدّين محمّد بن عبد الله الجيّاني (ت672هــ) إمام النّحاة واللّغويين في عصره، أخذ العربيّة عن علماء كثيرين، ورحل إلى المشرق متعلّمًا على أفذاذ علمائها كابن الحاجب، وابن يعيش وغيرهما. وله تصانيف عديدة نالت شهرةً كبيرة. ثمّ توالى بعده عدّة نحاة كان لهم أثر ذو بال في إرساء قواعد المدرسة النحوية في الأندلس نذكر منهم: ابن الحاج (ت651هــ) وابن الضّائع (ت680هــ) وابن أبي الرّبيع (688هــ) دون أن ننسى أبا حيان الأندلسي (ت745هــ) وجهوده النّحوية.

وهكذا، فإنّ الأندلس استطاعت، فيما أتيح لها من وقت، أن تنشئ مدرسة نحوية متكاملة، استطاع علماؤها مناجزة المشارقة، بل والاستدراك عليهم.

[1] - الأندلس في التّاريخ، شاكر مصطفى، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق سوريّة: 1990 ص 05.

[2] - المدارس النّحوية، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط06، 1992، ص 289.

[3] - ينظر: ظهر الإسلام، أحمد أمين، ج03، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط01، 1425هـ/ 2004م، ص 65-74.

[4] - ينظر: جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي، فادي صقر أحمد عصيدة جامعة النّجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، نابلس، فلسطين، 2006م، رسالة ماجستير ص28، 29،.

[5] - المرجع نفسه، ص 30.

[6] - ينظر: المدارس النّحوية، شوقي ضيف، ص 288 وما بعدها.

[7] - الرّدّ على النّحاة، ابن مضاء القرطبي، تح: شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة مصر، ص 137،.